«منصور لم يمت»(*)

حلقة من سلسلة أطفال الحجارة

عن (دار يمان للنشر والتوزيع) في عمان صدرت دفعة واحدة عشرة أعمال قصصية، تتضوي جميعاً -بإخراجها الأنيق- تحت (سلسلة أطفال الحجارة) ويحمل كل منها عنواناً مستقلاً وبالتسلسل التالي:

(١) منصور لم يمت. (٢) محمود عز العرب.

(٣) القدس لا تؤمن بالدموع. (٤) السياج.

(٥) الأصدقاء الثلاثة. (٦) الأرض الملتهبة.

(٧) ذبيح القدس. (٨) رحلة إلى جبل النار.

(٩) أبطال من جباليا. (١٠) البركان الإسلامي.

ومنذ الوهلة الأولى تقرّ عين المرء وهو يجد قبالته عشرة أعمال تغذّي أدب الطفل المسلم الذي لا يزال يعاني من الشحّة وقلّة الاهتمام، فتمنحه رصيداً ثميناً.

(*) للكاتب عبد الله الشيخ محمود الطنطاوي -كاتب سوري - ولد في أعزاز بسوريا عام ١٩٣٨م. له عدة مؤلفات نقدية وأدبية منها: في الدراسة الأدبية، ودراسة في أدب باكثير، ومن مجموعاته القصصية: أصوات (مشترك). وحكايات الآنسة إعراب (١٠ أجزاء) بالاشتراك.

obeikandl.com

تقرّ عينه وهو يرى الأديب المسلم يلاحق حدثاً ساخناً لم تبرد دماؤه بعد، فيعرف كيف يتعامل معه بهذا القدر من السخاء.

ثم هو يجد، فضلاً عن هذا وذاك، تعاملاً إسلامياً ملتزماً ينبض بالصدق الفني لأن الحدث الذي يشكّل حبكته من مفرداته، هو في نبضه وبنيته وتوجّهاته حدث إسلامي حتى أعمق نقطة في تكوينه.

هذا إلى أن السلسلة تنطوي على قيمتها التوثيقية، فإن ثورة الحجارة التي استمرت السنوات الطوال في مجابهة تحدّيات التآكل والفناء، محققة ذلك الكسب الكبير في منح «القضية» دماً جديداً، وفي تحفيز فاعليتها في قلب الأرض الفلسطينية، وتمكينها من المزيد من العطاء... هذه الثورة الفريدة من نوعها في تاريخ مقاومة هيمنة الطاغوت المغتصب، والتي اعتمدت الحجر أداة لضرب العدوّ.. لهي بأمسّ الحاجة إلى توثيق تفاصيلها المدهشة ومفرداتها التي تعزّ على التصديق، بقوّة الأداء الفني وتقنيّاته الجمالية شعراً أم قصة أم رواية أم مسرحية أم مقالاً.. ولسوف يكون هذا التوثيق أكثر صدقاً فنياً عندما يتعامل مع الحدث لحظة تشكله وخفقاته، أو قريباً منها.

يقوم تكوين السلسلة على جهد مزدوج: يقدم أديب أو اثنان الأفكار والمفردات المستمدّة من قاموس ثورة الحجارة، والتي تصلح لبناء القصّة، ويتولى الأخ الأديب الأستاذ عبد الله

الطنطاوي معالجتها وصياغتها وفق المطالب الفنية لهذا النوع الأدبي.

أما الأدباء الذين قدّموا الأفكار والمفردات فهم: محمد جمال عمرو، محمود الرجبي، نزيهة محمود، باسل الخطيب، سمير محمود، سليم عبد القادر، حسين حمدان العودات، رانية جعفر عبد الفتاح، رائدة أبو الربّ، ومحمد أحمد الكسجي.

ومن بين هذا الحشد المبارك ثلاث أديبات تعطي مساهمتهن في السلسلة مثلاً على حضور المرأة المسلمة في ساحات الأدب الإسلامي وبخاصة في ديار الشام والأردن وفلسطين.. ويأمل المرء أن يزداد هذا الحضور كثافة وعطاءً لكي يعكس أكثر فأكثر دور المرأة المسلمة في حركة الأدب الإسلامي المعاصر.

* * *

تدور أحداث القصة التي بين أيدينا في قرية (أم الفحم) القريبة من جنين، وهي -كما تصفها القصة- قرية فلسطينية بائسة نسيها الناس أو كادوا ينسونها بعد احتلال القوات الصهيونية الضفة الغربية وفرض سياسة التجهيل والإفقار على المدن والقرى المحتلة.. وقد يتجاوز الحدث موسّعاً فضاءه المكاني هذا باتجاه قرية مجاورة حيناً، والمسجد الأقصى في القدس حيناً آخر. وما دامت أم الفحم قد اختيرت بؤرة للفضاء الروائي، فإن

ما يعوزها هو المزيد من التحديد لملامح المكان وتفاصيله «الواقعية» قدر الإمكان، من أجل منح المصداقية للوقائع التي ستتشكل فيه أو قريباً منه. فنحن لا نكاد نعرف من هذه القرية سوى مدرستها وسجنها ومسجدها، وهي مواقع نمطية يمكن أن نجدها في كل قرية أو مدينة.

إن صفحة واحدة أو نصف صفحة، وربما لمسات متفرقة عبر مقاطع القصّة يمكن أن تقدم لنا خصوصيات هذه القرية: بيوتها وأزقتها وحاراتها ومنعطفاتها، وتجعلنا نستذوق طعومها وروائحها، فنتحقّق بمعايشة أعمق وأكثر اتساعاً لما يتشكل في نسيجها من أحداث.

شخوص القصة يعانون أيضاً من قدر ملحوظ من التجريد، فهم يمكن أن يكونوا في كل مكان: الأستاذ سالم الذي يتولى قيادة المقاومة في القرية، وساعده الأيمن «المعلم» الذي لم نعرف حتى اسمه، والأشبال الأربعة: ثائر وأحمد وجهاد ومنصور.. وفي الجانب الآخر هناك ضباط وجنود وحاخامات صهاينة.. وبين الطرفين اثنان من الخونة الوشاة المتعاملين مع العدوّ: رمزي وابن نفّوسة.

بعض الخطوط والملامح الجسدية والنفسية لهؤلاء جميعاً قد تجعلهم أكثر إقناعاً. فيما عدا ذلك فإن حبكة القصة وحوارها ولغتها البسيطة العذبة، تعوّضها الكثير عن فقدان شخوصها وفضائها المكاني ملامحها المتميزة.

ولن تكون هذه الصفحات محاولة لاستعادة الحدث، أو تلخيصه، فإن بمقدور القارئ أن يرجع إليه فيتعامل معه بشكل مباشر لا تضع يد النقد فاصلاً بينه وبينه.

وإنما هي ملاحظات موجزة عن الحلقة الأولى من هذه المحاولة التي تحمل قيمتها الفنية على أكثر من مستوى، والتي جاءت في خطابها الإبداعي، وكثافتها موازية تماماً للحدث الذي صنعته الظاهرة الفريدة، وبالتالي فإنه كفاء لمعادلها الموضوعي إذا صحّ التعبير.

إيقاع القصة يقوم على ما يمكن اعتباره تصادياً بين الأفعال وردودها فنحن منذ اللحظات الأولى في حالة صراع متواصل بين الفلسطيني المسلم صاحب الأرض، وبين الصهيوني المغتصب الدخيل.. وكلما هدأت نار الصراع عمد القصّاص إلى إشعالها كرة أخرى.. والقارئ لا ينتظر طويلاً لتلقّي الردّ، فالرد حاضر بين لحظة وأخرى.. والأستاذ والمعلم والأشبال يمضون حياتهم في كل دقائقها وتفاصيلها لضرب العدو أو الردّ على كيده بكيد مثله.. والمعركة ماضية بين الطرفين، مصعدة حيناً، منحسرة حيناً آخر، لكنها لا تكف عن الاشتعال لحظة واحدة.

إن هذا التصادي فضلاً عن كونه انعكاساً أميناً لحالة قائمة فعلاً، وتحقّقه -بالتالي- بقدر كبير من الصدق الفني، فإنه ينطوي -كذلك- على قيمة فنية لا تقل أهمية إذا تذكرنا أن هذه

القصة، وكل القصص التسع التي ستليها، معنية بخطاب الأطفال الذين صنعوا الحدث بصيغة باهرة لم يشهد التاريخ مثيلاً.

يتمنى المرء أحياناً، ومن أجل تعميق الملامح «الإنسانية» للشخوص أن لو يرجع القصاص بشخوصه هؤلاء، إلى الوراء بين الحين والحين، لاستجاشة ذكرى أو الاندغام في واقعة ما نفسية أو اجتماعية.. أن يفجّر فيما بينهم وبين أنفسهم تيار الوعي أو سيّال التداعيات.. أن يمنح للمنولوج الداخلي، مع بعضهم على الأقل، مساحة أكثر اتساعاً لكي يعطي القارئ فرصة ما للابتعاد قليلاً عن اللهاث وراء «الاشتباكات» و «الملاحقات» المتواصلة، لمعاينة ما يجري هناك في نفوس الأطفال، أو الخصوم.. في ماضيهم «الخاص» القريب والبعيد.

إن الصراع، والفدائية التي تبلغ حدّ عشق الشهادة، تعكس ولا ريب حالة نفسية بالنسبة للفدائي نفسه، أو العدوّ أو -حتى- الواشي الحقير الذي يتعامل معه.. وإن المضيّ بالكاميرا في منحنيات هذه الحالة سيؤدي هدفاً مزدوجاً: التخفيف من ضغط الحدث، وتواصله منذ البدء حتى المنتهى، وكذلك منح الوقائع خلفيات أو بطانة إنسانية تنبض -بالضرورة- في وجدان الشخوص الذين يتصارعون ويستشهدون ويخونون.. وتخزّهم - أحياناً- لسعة الندم في اللحظات الأخيرة.

إن القاص يتألّق وهو يسوق سلسلة الأفعال وردودها إلى نهايتها المؤثرة بعفوية وصدق ودونما أي قدر من الافتعال،

فمذبحة المسجد الأقصى في الجمعة الدرامية يذهب ضحيتها العديد من الشهداء والجرحى، ومقاومة الأشبال بالحجارة والنار لقوى تفوقهم بكثير لا تصنع المعجزة، ولكنها تقدّم حالات بطولية نادرة، حيث يرجع الأشبال الأربعة إلى «أم الفحم» وهم «في حالة شديدة من الإعياء المشوب بسعادة لا توصف». وتتناقل وكالات الأنباء أخبار المذبحة ويعم الإضراب سائر المدن الفلسطينية، ويتحدث السائق أبو مصطفى الذي عاد بالأستاذ سالم والأشبال، بإعجاب عن دور منصور بالذات، الذي يغدو في ختام القصة بؤرة الحدث.. فيتحرك العميل رمزي، قبل أن يحاسبه اليهود على تقصيره، بإخبار ضابط المخابرات الإسرائيلية في جنين ويتنبه الأستاذ إلى خطورة الموقف، ولكن بعد فوات الأوان، فإن ما تحدّث به السائق عن منصور انتشر على أكثر من لسان، وأصبح منصور مكشوفاً قبالة سلطات الاحتلال. ومع ذلك تتمّ بنجاح محاولة تهريبه إلى دار زميله أحمد حيث ينتظره الأستاذ بصبر فارغ، وحيث يتخذ قراره فليس ثمة بديل آخر..

أرى أن يغادر منصور إلى قرية (مجدو).

قال منصور:

-ولكنني لا أعرف أحداً في (مجدو) كما لا أعرف الطريق في هذا الليل.

قال المعلم:

- أنا أعرف الطريق والقرية، وابنة عمي متزوّجة هناك.

وقال لأحمد:

- أرجو أن تأخذ والدتك إلى بيتنا فزوجتي على وشك الولادة وأطفالي صغار..».

وبدلاً من أن يمضيا إلى هدفهما، يغريهما الانتقام من «المخبر» ابن نفوسة ويقول المعلم:

هذا بيت ابن نفوسة وهو سبب البلاء

فيهمس منصور:

- نذبحه ونتابع طريقنا

ويقول المعلم:

- ساعدني على تسلّق الجدار

فيردّ منصور وهو يمسك بالسكين:

- دعني أنا سأذبحه.

ويقتحم الاثنان دار ابن نفوسة فيتوسل إليهما ألاّ يقتلاه، معلناً ندمه:

- هذه آخر مرة.. رمزي هو الذي كتب عن الأستاذ وعن منصور..

كان ابن نفوسة يبكي، والمعلم واقف فوق رأسه بسكّينه ويقول ابن نفوسة متوسلاً:

- أقسم بشرفي، إذا تركتني فسوف أدلّك على صيد ثمين

سأله المعلم وهو يرفسه:

- ما هو؟ قل بسرعة قبل أن آخذ روحك..».

ويكشف له ابن نفوسة عن موضع الرشاش وخمس قنابل دفاعية ويدلّه على بيت رمزي حيث يقيم عشرة جنود صهاينة جاؤوا لاعتقال الأستاذ منصور.. ويتم ترتيب محاولة للإجهاز عليهم بعد إذ «تعشَّوا وسهروا وشربوا حتى سكروا وهم الآن نيام كالأموات».

ينفّذ الاقتحام بنجاح وتتم تصفية رمزي والجنود الإسرائيليين العشرة ويمضي المعلم ومنصور لمتابعة طريقهما إلى (مجدو) إلا أنّ كميناً كان لهما بالمرصاد.. ويجري تبادل إطلاق النار ويتم تدمير الكمين لكن بعد أن تكون بضع رصاصات قد انغرست في جسد منصور.

يعود به المعلم إلى (أم الفحم) شهيداً، ويخرج أهل القرية ليطوفوا به في الأزقة والشوارع ثم يواروا جثمانه التراب، وتتقدّم مفرزة إسرائيلية ويسأل أحدهم: أين منصور؟ فيجيبه أحد الأشبال: أنا منصور، ويرد الآخر، بل أنا منصور.. ثم ما تلبث

أصوات التحدّي أن تنفجر متزايدة هنا وهناك: أنا منصور.. أنا منصور.. أنا منصور.. ويقول الضابط الإسرائيلي: اللعنة، نقتل منصوراً واحداً فيولد ألف منصور.

وهو يغادر بسيّارته تتعالى هتافات (الله أكبر) تشق عنان السماء، ويتأمل الأستاذ النمور السود ومن حولهم أطفال القرية وشبابها، ثم يقول: صدّقوني.. منصور لم يمت!!

إنها نهاية عفوية صادقة لا تنجرف باتجاه التوتّر (الميلودرامي) كما أنها لحظة مؤثرة مشحونة بالرموز والدلالات.. إن (منصوراً) حاضر في أم الفحم، في مجدو، في جنين، في نابلس، في القدس، وفي كل مكان من قرى فلسطين وبيّاراتها ومدنها.. حيّ في إخوانه الأشبال.. في أحمد وثائر وجهاد، وغيرهم كثيرون.. كثيرون جداً.. أطفال فلسطين جميعاً سيكون كل منهم (منصوراً).. وسيضربون اليهود بالحجارة، والرصاص إذا اقتضى الأمر.. وسيستشهد أحمد وثائر وجهاد، لكن ما يلبث أن يحلّ محلّهم عشرات من إخوانهم، يتدفّقون قبالة العدو من كل مكان. (مؤمنين حتى أعمق نقطة في وجدانهم الغضّ أنه ليس ثمة مع بني إسرائيل، أعداء الله والإنسان، مغتصبي الأرض والمصير.. سوى أن نقول لهم: لا، وأن نعبّر عن رفضنا إياهم بكل أسلوب - بقذفهم بالحجارة حيناً وبالرصاص حيناً آخر، حتى يأذن الله بعودة الحق السليب إلى أهله وأصحابه).

النهاية مقنعة تماماً، وهي تحمل دلالتها على المستوى الفني الصرف في سياق سلسلة ستلد تسع قصص أخرى تتحدث إحداها عن (محمود عزّ العرب) وأخرى عن (القدس التي لا تؤمن بالدموع) وثالثة عن (الأصدقاء الثلاثة) ورابعة عن (الأرض الملتهبة) وخامسة عن (ذبيح القدس) وسادسة عن (رحلة إلى جبل النار) وسابعة عن (أبطال من جباليا) وثامنة عن (البركان الإسلامي)..

وفي كل الأحوال فإن (منصوراً) لم يمت، ولسوف ينهض مرة ومرتين وثلاثاً لكي يرشق بني إسرائيل بالحجارة والرصاص.

obeikandl.com